تجدد ظاهرة التوسل في الشعر الصوفي الشعبي الجزائري؛ محمد بلخير، نموذجا

The renewal of the phenomenon of supplication in Algerian popular sufi poetry; Muhammad Belkhir, as a model

د. بودية أمحمد
أستاذ محاضر أ
جامعة سعيدة الدكتور مولاي الطاهر
mostaphasalim123@gmail.com

تاريخ الإرسال: ../../....	تاريخ القبول: ../../....	تاريخ النشر: ../../....

الملخص:

لا تختلف موضوعات الشعر الجزائري الديني عن باقي مواضيع الشعر الديني عند العرب، إذ تعالج تجربة وجدانية عميقة، وفي هذه الدراسة سنتناول ظاهرة التوسل في الشعر الصوفي الشعبي الجزائري التي تعكس الثقافة الدينية لدى الشعراء، واخترنا المتن الشعري لكل من لخضر بن خلوف ومحمد بلخير لاستعراض الجوانب الفنية للشعر الصوفي الجزائري.

الكلمات المفتاحية : الشعر- الصوفي – التوسل- الشعبي – الجزائري.

Summary:

The topics of Algerian religious poetry do not differ from the rest of the topics of religious poetry among the Arabs, as it deals with a deep emotional experience In this study, we will discuss the phenomenon of supplication in Algerian popular Sufi poetry, which reflects the religious culture of the poets We chose the poetic body of Lakhdar Ben Khalouf and Mohamed Belkhir to review the technical aspects of Algerian Sufi poetry

Keywords : Poetry - Sufi - supplication - Popular – Algerian.

1.مقدمة :

لقد ارتبط الشعر الملحون الجزائري ارتباطا وثيقا بالدين، لأن جل الشعراء الشعبيين نشؤوا في بيئة دينية وزاولوا دراساتهم في الكتاتيب والزوايا المنتشرة في ربوع الجزائر" خاصة وأن الشعر غير المعرب جاء مع الفتح الإسلامي، ثم انتشر بصورة قوية واضحة بعد مجيء الهلاليين إلى الجزائر سنة 1067م460هـ حاملين معهم لهجاتهم المتعددة حيث تغلغلوا في الأوساط الشعبية وساهموا في تعريب الجزائر بصورة جليَّة اعترف بها كثير من الدارسين"[1]، كما أن قسوة الاستعمار الفرنسي وبطشه وأساليبه الهمجية حركت في الشعراء كوامن العواطف الدينية وجيَّشت أحاسيسهم، لذا أصبح الدين أهم وسيلة لدى الشعراء الشعبيين للتعبير عن جميع مظاهر حياتهم العامة والخاصة داعين إلى القيم والأخلاق من كرم وزهد وإخلاص.

فقد " ظهر شعراء متصوفة وأنشدوا قصائد ملحونة وموشحات وأزجالا في المديح النبوي وفي الإشادة في الدين، وهم في هذا يتابعون شعراء الفصحى لأن الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي أثرت في الشعر الفصيح هي نفسها التي ساهمت في اتجاه شعراء الملحون إلى الدين فأنشؤوا وأنشدوا فيه قصائدهم وأزجالهم لينفسوا عن حرمانهم"[2].

ولقد عُرف عند سكان الجزائر الميل إلى الشعر الملحون باعتبار لغته البسيطة وأفكاره العميقة، خاصة تلك الممزوجة بروح الدين الإسلامي الذي يعتبر دين جميع الجزائريين دون استثناء يقول العربي دحو: " وقد آثرنا البداية بالنص الديني لأنه النص الذي لا يختفى عندهم أبدا، فهو يسري في عروقهم في مختلف مراحل حياتهم حتى في أحلك أيامهم كأيام الثورة مثلا"[3].

أما التوسل فهو إلحاح في الدعاء بذكر الوسيلة لقبوله، مشروع ومرغب فيه كما دلّ على ذلك حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فسدت باب الغار فاستحال الخروج فما نجوا إلا بفضل التوسل حيث

توسل كل واحد منهم بأرجى عمل صالح له ففرج الله عنهم[4]، والتوسل كثير في الشعر الشعبي والرسمي على حد سواء خاصة عند الشعراء المتصوفة.

2.التوسل :

لغة: من وسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملا تقرب به إليه، والواسل الراغب إلى الله ...وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل... وفي حديث الأذان: اللهم آت محمدا الوسيلة، هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء، ويتقرب به وقيل هي الشفاعة يوم القيامة، وقيل هي منزلة من منازل الجنة[5].

اصطلاحا: يعرفه الفقهاء بأنه الإقسام على الله بذاته، ويكون التوجه فيها للخالق سبحانه ، كما في قول الشاعر:

الهي ترى حالي وفقري وفاقتي و أنت مناجاة الحقيقة تسمع

الهي لئن خيبتني وطردتني فمنذا الذي أرجو سواك فيدفع

أو يكون التوسل بالرسول ﷺ كما توسل به السلف كقول أحدهم :

وسيلتي جاه خير الخلق أجمعهم محمد المصطفى من خير عدنان

وقد نجد بعض الشعراء يقدمون الأولياء شفعاء إلى الله سبحانه وتعالى يقول الشاعر :

فجاههم ربي إليك وسيلة ففرج همومي كي ينال منالي

وهناك من الشعراء، من يجمع بين التوسل بالصالحين وبالرسول (ص)، يقول أحدهم:

بجاههم أسأل الرضوان يشملني ممن تعالى عن الأعراض والعلل

بالمصطفى وبهم كل مؤتمن ك محتسبفي الله محتمل.

3.التوسل في الشعر العربي :

لم تظهر ظاهرة التوسل في الشعر الجاهلي إلا نادرا، لانغماس شاعر هذه الفترة في ملذات شتى بل لاحت بوادره الأولى في عهد النُبوَّة موازاة مع شعر المديح النبوي، لتصبح فيما بعد الظاهرة الأكثر ذيوعا في الشعر الملحون عبر جميع مظاهره، إذ لا نجد شاعرا واحدا تخلى عنها، وربما حتى في قصائد الغزل كما فعل الشاعر **محمد بلخير** شاعر الحب والحرب، يقول:[6]

بْجَاهْ الصَّالْحِينْ الوْعَرْيَرْجَعْ لِيَ سَاهَلْ خَبَّرْنِي عْلَى عْرَبْ صِفَةَ المَفْتُولْ

ولقد ظهر جليا فن التوسل في الشعر الرسمي بعد وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، حيث كثرت الفتن والمصائب والرزايا فتوسل الشعراء بالنبي وآله الطيبين والخلفاء والصالحين...

4.التوسل في الشعر الصوفي الجزائري :

التوسل لدى الشاعر لخضر بن خلوف :

يعتبر الشاعر **لخضر بن خلوف** من أوائل الشعراء الشعبيين الذين أكثروا من التوسل في أشعارهم حيث كان جل توسله صلاة وتسليما على الحبيب رسول الله، لأنه في اعتقاده أن أعظم وسيلة للنجاة حب الرسول صلى الله عليه، كما يستخدم الشاعر أيضا وسائل أخرى لتوفير قدر من الموسيقية، والتنغيم لشعره منها المد، الذي يكثر منه، فهو إلى جانب إيقاعه الصوتي، له دلالات معنوية، إذ يفيد التعبير عن الحزن: استطالة الآهات بواسطة النداء، والندبة، والاستغاثة، أو التعبير عن الفخر، والتحمس، ويتم انتقاء الحروف المناسبة للغايتين[7] .**ولخضر بن خلوف** جمع بين الاهتمامين في قصائده، فهناك حزن على ما اقترفه من ذنب، وشعور بعبء ذلك، ومحاولة التغلب عليه بالتوسل من جهة أخرى .ويتجلى المد في البيت بشطريه، فغالبا ما يستهله بمقاطع ممدودة. كما يظهر هذا المد في القافية التي تؤلف في الواقع نفسا شعريا يتخلل المقطوعة كلها، وقد أحكم الشاعر الصلة بين أجزائها سلسلة من الصور المتداخلة المتآلفة، التي تعضدها

نغمة القافية المفتوحة، وألفات المد المتكررة: (قبلا، النحلا، يعلا ،)... وكذا نغمة القافية المفتوحة التي تخدم حرف الروي دائما. يقول:

الروح من ذنبي خافت يا سيدي دبر عليا[8]

والمعروف أن جماليات التشكيل الصوتي في القصيدة الشعبية لا سيما عند **بن خلوف** تعتمد على عناصر صوتية، أهمها، أصوات اللين، مما دفع بعض الباحثين إلى افتراض أن خاصية النبر لا توجد إلا في هذه الأصوات، لأن ثمة تناسبا طرديا بين درجة النبر، وطول الصائت، إذا أخذنا بتفسير النبر على أنه مجهود عضلي، صوتي[9] ، فصدى الصوت يبقى مستمرا بعد النطق بالحرف، واعتماد المقاطع الممدودة بهذه الكثافة وفر للنصوص إيقاعا موسيقيا غنيا، نفث الشاعر من خلاله همومه، وأحزانه، وأشواقه للمقام الشريف المقدس، وتجلت رغبة الشاعر في الخروج من سجن الذنب، والشعور بالخطأ، والرغبة في التخلص منه، والتطهر من دنسه، ولو تأملنا في بعض الأبيات، وحللنا بعض صورها، لكشف لنا عن تآلف عجيب بين جرس الألفاظ، والدلالة الصوتية للكلمات، هذا الترابط بين القيم الصوتية، والقيم المعنوية في شعر **بن خلوف**، وغيره من الشعراء الشعبيين يجعلنا من الصعب الفصل بينهما، فنزيد يقينا أن للقافية قيمة معنوية تضاف لوظيفتها الصوتية ، وهذا كله يخدم حال التوسل والمناجاة، ولعل حازم القرطاجني أكثر النقاد العرب تنبها إلى الدور المعنوي، أو الوظيفة الدلالية التي تقوم بها القافية في الشعر[10].

إن معجم ما يرجى أن يكون يفوق معجم ما هو كائن، أي أن الشاعر اتجه إلى التوسل، وطلب العفو، والشفاعة أكثر من اتجاهه نحو إظهار عيوبه، وذنوبه فكان توسله، توسل متفائل مؤمن بعفو ربه، وشفاعة نبيه المصطفى. لا تتم الشفاعة، والعفو، والرحمة إلا بإبداء دلائل التوبة النصوح، وبراهينها، لذلك نجد الشاعر يسوق بعضها، ويعتمدها في طلب النجاة، وهذه الدلائل تتمثل في الحجج القرآنية التي أثرت

النصوص وأغنتها، وعمقت دلالتها، ولعل الشاعر **سيدي بن خلوف** - وهو الفقيه - اعتمد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث الإنسان على الاستغفار، والتوبة.

الناس لكل واحد حرفة و أنا حرفتي العدناني

إذا مدحت جد الشرفا يتخلخل الشهد في لساني[11]

لقد جاء شعر **بن خلوف** مليئا بغرض التوسل فقد أظهر الشاعر بن خلوف في قصائده فقره إلى الله تعالى ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام، والتي يطلب فيها أن يأخذ بيده ويتجاوز عن سيئاته فهذا ليس غريب على ولي صالح عرف بتقواه وإيمانه الكبيرين بالله ومن عرف الله أدرك أن لا غيره يتوكل عليه، يقول الشاعر في هذا الشأن :

يوم نموت تدعوا لي بالاستغفار وبعدها افتكروا مداح محمد

أواه كان الأخضر مشغوف بالمختار الله يرحمه قل يا اللي تشهد[12]

التوسل لدى الشاعر محمد بلخير:

نشأ الشاعر **محمد بلخير**[13] كأفراد قبيلة الرزيقات التي استوطنت الغرب الجزائري، محبا للفروسية والصيد والشعر على عادة عرب البدو، معانقا حبات رمل الصحراء منطقة البيض، لم ينل حظا من التعليم بسبب الاستعمار والترحال، انتسب إلى ثورتي أولاد سيد الشيخ الأولى والثانية[14] محاربا وشاعرا يحرض ضد العدو فاضحا أساليبه الوحشية وخططه القمعية، سلّم نفسه للعدو الفرنسي ليطلق سراح عائلته الرهينة، فحكم عليه بعشر سنوات سجنا مع نفيه إلى جزيرة كورسيكا وكان هذا سنة 1884م، 1302هـ، أفرج عنه سنة 1894م، فرجع إلى الجزائر لكن لم يسمح له بزيارة منطقة البيض فتوجه إلى منطقة الأبيض سيد الشيخ ، توفي مابين سنتي 1904م و1906م[15]، ودفن في مقبرة القناطر، نقل رفاته بعد الاستقلال إلى مقبرة الشهداء بدائرة بوعلام ولاية البيض.

لقد أكثر شاعرنا من ظاهرة التوسل في شعره، ذلك لتضافر عدد من الأسباب القاسية دعته إلى الاستغاثة وطلب العون من القوى الروحية التي كان يراها عظيمة ومنجية ولا سبيل للوصول إلى ما يحب ويتمنى إلا بالتضرع والتوسل وإتقان فن المناجاة، فهو تارة يتوسل بصفات وأسماء خالقه، وتارة بجاه النبي ـﷺـ وتارة أخرى يتوسل بشيخه "سيدي الشيخ"[16]، وهذا كثير في شعره إلى حد لا يمكن حصره أو عده، وربما ألجأته الحاجة والضنك أحيانا ليتوسل بأهل القرآن وبالعشرة المبشرين بالجنة، وبأهل النوبة، والأقطاب، ورجال الديوان... فالاستعمار والمنفى، والفساد، والجوع، والحرمان، والسجن، والظلم، والاستبداد... وغيرها، كل هذه الأسباب وأخرى جعلته يتوسل، ويستغيث، ويدعو، ويتضرع من أجل أن يكون وطنه حرا ونفسه طليقة وأفراد قبيلته متحدون مخلصون آمنون.

لقد طرق الشاعر بلخير أغلب الأغراض الشعرية المعروفة إلا أن كل قصائده كانت موشحة بالتوسل خاصة حينما يتذكر العدو المستعمر فتتأجج نار الغضب في صدره فيمطر القصيدة بوابل من الاستغاثة والتوسل والتضرع من أجل أن يرحل المحتل عن أرضه الجزائر.

يستغيث الشاعر ويدعو ويتودد فهو دائم الإحساس بالضعف والاستسلام خاصة إذا ذكر شيخه " **سيدي الشيخ**" الذي يعتبره أعظم مخلوق بعد النبي ـﷺـ فهو صاحب كرامات عظيمة وخوارق مذهلة ينجي أحبابه في البر والبحر مهما بعدت المسافات والأزمنة،ولكنالشاعر يتوسل حقيقة حينما يورد لفظة "**بجاه**" وهي دلالة خالصة على استحضار أعظم الوسائط لاستجابة الدعاء وطرد الهموم، وقد استعملها في عدد من المواضع حينما يحترق شوقا وحنينا إلى وطنه لاسيما وهو يقبع بعيدا عنه في منفاه بكورسيكا سجينا بقلعتها الموحشة " كالفي"، وقد ظهر ذلك في قصائده؛ " **كالفي**"، " **خاطري تهول**"، " **رحل البيضا حرمتك عندك لا تنساني**"، " سلاك **المغبون من أرض الكفار**"، يقول الشاعر:[17]

بْجَاهْ لِي قْرَا الآيَهْ وْبْجَاهْ المُصْطْفَى النْبِي

بْجَاهْ فْضَايَلْ وَالْدِيَا وُالمُرْضِعِينْ كُلْ صَبِي

يَا سِيدِي لَا تْهَوَّمْ بِيَا وُتْشَفَّكْ غُرْبْتِي وُشَيْبِي

فالشاعر يتوسل لله بجاه حفظة كتاب الله، الذين هم أهل الله وخاصته[18]، وبجاه النبي[19] _ صلى الله عليه وسلم_، وبجاه الوالدين والمرضعين أن يرجعه إلى وطنه ويخلصه من منفاه الرهيب البعيد.

ثم يتوسل الشاعر بنفس الحرارة مستعملا نفس اللفظة "**بجاه**" في قصائده الثورية التي ألفها لفضح العدو وكشف مؤامراته وظهر ذلك في قصائده؛ " **إلي باغي الجنة يضاد الكافرين**"، **أولاد حمزة الأبلج**"، " **أنا خديم رحل البيضا**"، إذ أورد لفظة "**بجاه**" في هذه القصيدة ست مرات كل هذا الإلحاح والتوسل والاستجداء من أجل أن يتخلص الوطن الغالي من ربقة الاستعمار الغاشم، يقول الشاعر:[20]

بْجَاهْ يَا رَبِّ نْكُونْ مَنْ ذْنُوبِي خْفِيفْ أَنَا وُالسَّامْعِينْ فِي جَنَّةْ رَضْوَانْ

لقد وصل الشاعر في بعض الأحيان في توسله ب"**سيدي الشيخ**" إلى درجة المغالاة والشرك أحيانا، وهذا ما يؤكد الثقافة الإسلامية البسيطة للشاعر خاصة في الجانب العقائدي، فلم تكن عميقة ولا راسخة مما جعله أحيانا يضيف ما لله وحده إلى شيخه "سيدي الشيخ"، كالتصرف في الكون مثلا.

تعد قصائد المنفى لدى الشاعر من أكثر القصائد التي تحمل الألم والحزن والأسى لذا نجد هذه القصائد ملأى بالاستجداء والدعاء والاستغاثة والتودد والتوسل من أجل الخلاص من السجن والمنفى مستعملا بعض الألفاظ الدالة على ذلك مثل: سرحني، لا تنساني، سلكني، سهّل، ... وغيرها.

استطاع الشاعر **محمد بلخير** بعبقرته وتجربته أن يؤسس لمولد الشعر الشعبي الثوري الإعلامي، فقارع المستدمر الغاشم برد أباطيله ودحض حججه وكشف مؤامراته والتحريض عليه، ونشر فضيلة الجهاد

والمقاومة بين أفراد الشعب الجزائري، كل هذا كان بواسطة الشعر الملحون الممزوج بعبق التصوف وشذى الدعاء والإلحاح والتوسل.

5.الخاتمة :

لقد استمرت ظاهرة التوسل في شعر الشعبي الجزائري، ولم تغادره ومسّت كل أغراض الشعر حتى الغزل والهجاء، مما يدل على أن شعراء الملحون ظلوا أوفياء لثقافتهم الدينية متعصبين لها متمسكين بحبالها، ومما زاد من لهيب التوسل تلك المصائب التي لم تغادرهم وأعظمها كان الاستعمار والفقر والجفاف و....، لكنها أي ظاهرة التوسل كانت تتجدد من حين لآخر فالتوسل عند لخضر بن خلوف كان كله صلاة على الحبيب، حيث رأى أن حب النبي والصلاة عليه أعظم الشفاعات وأزكى القربات، بينما محمد بلخير زاد على هذا النوع وتوسل بكل الوسائط التي رآها تصلح لذلك فتوسل بالنبي وبسيدي الشيخ وبآل بيت النبي والعشرة المبشرين بالجنة والصبيان و قراء اللآيات....إلخ

6.هوامش البحث:

[1]. عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص. 368

[2].نفسه، ص. 369.

[3].العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في ثورة التحرير الكبرى بمنطقة الأوراس، (1954.1962)، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص. 63.

[4].ينظر: محمد العلوي المالكي الحسني، مفاهيم يجب أن تصحح، دار الانسان للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1985، ص. 44.

[5].ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (وسل)

[6].البيت 17 من قصيدة " خبرني على عرب خيرة وين تزول" ينظر:
.Si Hamza Boubaker/ trois Poètes algériens/p/60

[7]. ينظر، د. حسن جلاب: الآثار الأدبية لصوفية مراكش، ص 17 .

[8]. البيت 45 من قصيدة **مفتاح خير الا ينفذ**، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، محمد بن الحاج الغوثيبخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان ، الجزائر، 2001، ص. 78.

[9]. ينظر، د. صلاح يوسف عبد القادر : في العروض والإيقاع الشعري، دراسة تحليلية تطبيقية، الأيام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، ط 1 ،1996 ،ص 177.

[10]. ينظر: حازم القرطجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، ص. 123.

[11]. البيتان من قصيدة **الموت لاغنى تدركني**، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، مرجع سابق، ص. 138.

[12]. البيتان من قصيدة سيد المهاجرين وسيد الأنصار، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، مرجع سابق، ص. 89.

[13]. لقد اختلفت الروايات حول تاريخ ومكان ولادة الشاعر الشعبي محمد بلخير، ولكن الرواية الأقرب للتصديق هي تلك التي رواها بعض أحفاده، أن مولده كان سنة 1822م، 1237هـ بالواد المالح الواقع بين وهران وعين تموشنت قرب مدينة العامرية، ويزيد تأكيد هذه الرواية الشاعر نفسه، حين يقول في منفاه بكورسيكا سنة 1884م:

مُحَمَّد قَالْ عْلِيكْ مِنْ الشْبَابْ وَلَّى شَيْبَانِي بَعْدْ اِثْنِينْ وُسِتِّينْ مَا بْقَى لِيَا مَا يَنْزَادْ

أي أنه في سنة 1884م كان يبلغ من العمر اثنين وستين سنة، وبعملية حسابية بسيطة نجد أنه ولد حوالي سنة 1822م.

[14]. كانت مقاومة أولاد سيد الشيخ الأولى سنة 1864م، بقيادة سليمان بن حمزة، وكانت المقاومة الثانية سنة 1881م بقيادة الشيخ بوعمامة.

[15]. يذكر عبد القادر جغلول في كتابه " الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر": أنه توفي نحو سنة 1905م.

[16]. سيدي الشيخ من أحفاد سيدنا أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه_ صاحب الطريقة الشيخية دفين منطقة الأبيض سيد الشيخ (البيض)، صاحب قصيدة " الياقوتة" التوسليّة.

[17]. ينظر: عبد القادر جغلول، مرجع سابق، الأبيات: 20، 21، 22، من قصيدة " كالفي"، ص. 170.

[18]. عن أنس بن مالك –رضي الله عنهُ– قال، قال رسُولُ الله –صلَّى الله عليهِ وسلَّم :–((إنَّ لله أهْلِينْ، قِيلَ من هُم يا رسُول الله؟ قال :هم أهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخَاصَّتُهُ)) هذا معرُوف مُخَرَّجٌ عند الدَّارمي و في المُسند وابن ماجه.

[19]. يجيز العلامة " عبد الحميد بن باديس" التوسل بذات النبي _ صلى الله عليه وسلم_، بخلاف الوهابية الذين يعتبرون ذلك شركا، ينظر: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عن آثار عبد الحميد بن باديس، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، 1983، مطبوعات الشؤون الدينية، قسنطينة، الجزائر، ص ص. 46، 47.

[20]. البيت 56، من قصيدة "**إلي باغي الجنة يضاد الكافرين**"ينظر:
.Si Hamza Boubaker /trois Poètes algériens/p/98